الكتابة الأدبية وسؤال المرجع الإيديولوجي
قراءة في التصور النقدي لعمار بلحسن

د/ صليحة بردي

جامعة الجيلالي بونعامة

خميس مليانة (عين الدفلى)

الملخص: قدّم "عمار بلحسن" مشروعا في التأويل الاجتماعي للأدب من مدخل مقاربة النسق الإيديولوجي الذي يتكشف تحت وصاية الممارسة الأدبية في تفاعلها مع مختلف المتغيرات في الحياة الإنسانية، وهو ما يمكن أن يندرج ضمن الأدب الإيديولوجي حين يكسر آفاق التوقع في طرق المحظور اجتماعيا عبر مضمرات خطابية تتصل اتصالا وثيقا بروح العصر، ويجعل البحث في إيديولوجيا القيم الاجتماعية في مقابل جماليات الخطاب الأدبي يفتح أفقا أوسع لكي يتحدث عن ذاته بذاته فيما يتعلق بأسئلة الراهن، وليس المهم أن نثبت وجود علائق تصل النص الأدبي بمرجعه الإيديولوجي؛ لأنها من المسلمات، وإنما أن نبحث في مسارات التوظيف، والأسلوب الذي يحاور به النص مرجعه.

الكلمات المفتاحية: عمار بلحسن، التأويل الاجتماعي، النسق الإيديولوجي، الممارسة الأدبية، أسئلة الراهن.

Abstract: Ammar Bellahcene presented a project in the social interpretation of literature through approach of the ideological context that unfolds under the tutelage of literary practice in its interaction with the various variables in human life, this can be enters within ideological literature when it breaks the prospects horizon in social taboos infraction through speechless which closely linked with age, and makes the research in the ideology of social ethics in exchange for the aesthetics of literary discourse opens a broader horizon to speak for itself in terms of the questions of the current, and it is not important to prove the existence of relations that link the literary

text with its the ideological reference; because it is axioms, but, We look at using paths, and the style in which the text is discussed.

Keywords: Ammar Bellahcene, Social Interpretation, Ideological context, Literary practice, questions of the Current.

المقاربة المعرفية:

يتدخل المرجع الإيديولوجي في صياغة التخريج النصي الأدبي، ويشتغل في سياق المضمر من الممارسة الكتابية، غير أن هذه المنطقة المستترة سرعان ما تتكشف عبر خيارات التعبير المتعددة، فضلا عن مسارات القراءة المتشعبة، وهي الإشكالية التي كثيرا ما أثارها الناقد الجزائري "عمار بلحسن"؛ في تفسيره علاقة الأدب بالإيديولوجيا.

حمل مصطلح إيديولوجيا معاني "النسق، و"الانسجام"، و"الشمول"، وكان أقل تواترا في أعمال تحليل الخطاب في بداية الثمانينات مقارنة بالسبعينات فلم يكن محل تنظير صريح، مع الاشتغال على الخطابات الشيوعية، والاشتراكية، واليمينيَّة المتطرفة؛ فالإيديولوجيا آنذاك مثلت هدفا سياسيا، قوامه التلاعب والتحايل، ثم أصبح مفهوم الإيديولوجيا أكثر استعمالا، وتطبيقا في التحليل النقدي للخطاب (Critical Discourse Analysis) خصوصا في تمييز الأجناس، والعناصر المكونة في ارتباطها بشتى التيارات تحليلا من مدخلي المجتمع، والسياسة[1].

سعى هذا التوجه النقدي عازما على تحقيق نسقية منتظمة على مستوى العلاقة بين الإيديولوجيا والخطاب، آخذا على عاتقه تحقيق غاية مفادها أن تحليل الخطاب يكون في ضوء بعده الاجتماعي، وهكذا تولى هذا النقد الخلافة بعد التحليل الفرنسي للخطاب في فترة السبعينات[2].

ولا شك في أهمية هذا التحليل في تأويل الخطاب الأدبي، وتفسير ظروف تداوله التي تساهم بشكل ما في تشكيله، وصياغته من مداخل معينة، كما أن شيوعه لا يقع عرضا، وبالمثل لا يمكن فصل أي خطاب عن ظروفه، بوصفها مرجعا جيدا في تفسير النشأة.

إن للإيديولوجيا العديد من الاستعمالات والتوظيفات المفاهيمية، لاتصالها بمنظومة الفكر الإنساني بإبعادها الفلسفية والاجتماعية المختلفة، «بمعنى أن الأنساق الصغرى التي هي أنساق فكرية ونصية ناقلة لخطاب محتواه في النسق العام للنص، فالتحليل يكون بدءً بالبنية اللغوية وبمجموع علاقاتها التي تنتظمها والتي من خلالها نميز تمفصل الأنساق الإيديولوجية من إبداع لآخر، فالنسق الدلالي العام للنص هو ما يمثل مجموع الأنساق النصية مع الفكرية»[3].

أما عن تفسير الظاهرة الأدبية فيذهب بلحسن مذهب النقد الاجتماعي في مقولته "الأديب ابن بيئته"؛ فهو يتأثر بها، ويؤثر فيها[4]، وهذا ما عبّر عنه الناقد بالقول: «أن أي مؤلف أدبي أو روائي لا يظهر من العدم بل تفرزه ظروف تاريخية –سوسيولوجية ملموسة، فلابد إذن لفهم هذا العمل من دراسة الفترة التاريخية التي شكلت السياق التاريخي لإنتاجه كنص، وفهم العلاقات الاجتماعية التي عالجتها، والتي سادت في تلك الفترة»[5].

إن الإيديولوجيا لا تعني فقط نظاماً فكريا معلناً يختص بجماعة إنسانية اجتماعية، بل تمثل أيضاً قيماً نكاشفها عن طريق الاستنباط، تتعلق بالشعور، أو التقييم، أو الإدراك، أو حتى الاعتقاد؛ حيث يضفي أفراد هذه الجماعة على هذه القيم طابع التماسك، والتواصل قدر الإمكان، ولهذا لا تتشكل إيديولوجيا ما مباشرة، وإنما عبر مراحل، وبفعل جملة من الشروط، والمعطيات التاريخية على اختلافها مما يكون له بالضرورة انعكاس في الواقع عبر مختلف الممارسات.

وأكثر المسائل إثارة للجدل في الطرح النقدي لعمار بلحسن قضية المرجع الإيديولوجي في الكتابة الأدبية؛ إذ يتحفظ بخصوص ردّ الفعل الكتابي إلى فكرة الخلق؛ ويقترح في الآن ذاته مفهوما آخر يعد من المفاهيم المركزية في الفكر الماركسي؛ يقول: «كلمة خلق كمفهوم ميتافيزيقي غير قادر على تحليل طبيعة الممارسة الأدبية، وإدراك العلاقات المعقدة التي تربط الأدب بالإيديولوجيا، ومن ثم بالعلاقات الاجتماعية وبنيته، فقدّمت مقولة أو مفهوما آخر يهدف لتحديد الأدب بدقة علمية، إنه مفهوم الإنتاج»[6].

والنص بوصفه إنتاجا يملك إضافة إلى الصفة الأدبية، صفته الإيديولوجية؛ فكل نص أدبي هو نص إيديولوجي، وإن كان هذا النص مترفعا أصلاً على أن يكون دعاية لإيديولوجيا ما هذا من جهة، كما أنه لا يتنكر لها، ولا يستطيع أن يستقل عنها تماماً من جهة أخرى؛ كونها الأسبق تشكيلاً.

هناك مسافة بين النص ومرجعه[7] تتحكم في توجيه العلاقة بينهما، والتي تأخذ طابعا إنتاجيا معقدا في الغالب؛ كما تقوم على حوارية خاصة مع السند الاجتماعي بغض النظر عن الجنس أو النوع الأدبي؛ بما في ذلك الخطاب السردي؛ حيث «كل رواية تشير إلى المنتج وشبكة الارتباطات بينه وبين منتوجه، والوسط الاجتماعي الأصلي الذي كان الرحم الذي ولد منه، فكل عمل تخيلي – خيالي يرتبط موضوعيا بقاعدة اجتماعية مهما ارتدى ولبس من ثياب»[8].

وتنحصر دلالة الإيديولوجيا في «الربط بين النشاط الاقتصادي، الذي تقوم به الطبقات الاجتماعية، أو تلك المعتقدات والتصورات والأفكار في تمثلها الإبداعي، التي تشكل نسقاً إيديولوجيا في الحياة الاجتماعية، وعاملاً لتجسيدها في الأعمال الأدبية الروائية»[9].

توصل بلحسن بعد تأمل طويل إلى إطلاق مصطلح جديد يكاد ينسحب في دلالته على النصاب الأكبر مما قدّم من طروحات في هذا الباب ألا وهو: «الإيديولوجيا الأدبية»[10]، وفي دراسته مختلف «الإيديولوجيات الأدبية التي ينتجها شكل خاص من الأدب هو الرواية»[11]، نجده يخص هذا الجنس الأدبي الخاص خصوصية ما ينتجه إيديولوجيا بمقاربة سوسيولوجية شارحة ربما أكثر من غيره كلما انتقل به الفهم والشرح من خطاب العموم (الأدب) إلى خطاب الخصوص (الرواية).

إن الرواية حسب تصوره النقدي بؤرة إيديولوجية منتجة متى تهيأت لها أسباب الكتابة، ومقادير التجريب، بل هي «خطاب إيديولوجي، وكلمة مبنية بمواد وعناصر سردية منظمة وموجهة ومؤطرة في سياق يسمح بالإجابة على حاجات اجتماعية فكرية تطبيقية، ومثيرات فرضها المجتمع، ومتطلباته الإيديولوجيا الفكرية تحديدا»[12].

إن علاقة الأدبي بالإيديولوجي لا تحتاج منا أن نثبتها، أو نلغيها أو حتى أن نشكك فيها، ذلك أن النص يتمثل الإيديولوجي في صياغة كتابة تتجاوز حدود الخطاب المباشر إلى آفاق جمالية لا حدود لها خاصة بالنسبة للنص الروائي، حيث تجمع الدراسات النقدية في محاولتها تأصيل جنس الرواية نشأة وتطوراً على تأكيد ارتباطه في جميع محطاته بالتاريخ الاجتماعي.

وبخصوص الدلالة الإيديولوجية للنص، وكذا صياغتها عبر المستوى الفني، فإن لغة النص أو أقوال الكاتب لا تقودنا بالضرورة للوقوف عند هذه الدلالة؛ «في مقابل ذلك تقرأ هذه الدلالة من خلال شخصيات العمل، وتكوينها الفكري والنفسي، والموقع التاريخي (الزماني والمكاني) الذي وضع العمل فيه، علاوة على دلالة الشكل الفني ... فالنص لا يستنفذ إمكاناته الدلالية إلا من خلال الشكل الذي يقدم به ... فالصياغة العزيزة للحدث، هي ما يكسب الشكل هذه الأهمية؛ لأنه اختيار بين ممكنات، وعملية الاختيار نفسها ذات طابع إيديولوجي»[13].

ويذهب عمار بلحسن في مكاشفة إنتاجية الكتابة الأدبية مذهبا بعيدا يتجاوز فكرة النص منه وإليه إلى مسألة الأثر السياقي وما يكتنزه من حمولة إيديولوجية مؤكدا أن عملية الإنتاج النصي معقدة بما يكفي لأن تظل سؤال معلقا على أعتاب التفسير النقدي؛ كونها تحتكم إلى «سيرورة تحويل وتشكيل وتثوير وتشويه للمواد الأولية الأدبية التي وضعها تاريخ الأشكال الأدبية أمام الكاتب من فنيات واتجاهات وأساليب الكتابة وطرقها. كما أن الكاتب في لحظات كتابته

لنصوصه يجد أمامه تجربته الحياتية بأبعادها النفسية والاجتماعية والإيديولوجية التي يتبناها ومجمل الإيديولوجيات المتواجدة في مجتمعه وعصره وأشكال انعكاساتها في ذهنه وفي أذهان الناس الذين يحيا معهم»[14].

الكتابة الأدبية من وجهة نظره تجاوز تفرضه الضرورة الاجتماعية في حد ذاتها، وكأن هذا المعنى الإيديولوجي يفرض ذاك المبنى الأدبي، فلا ينقل لنا الصورة المرجعية نقلا توصيفيا سطحيا لا يصل إلى صميم القطاع الاجتماعي؛ بل إن الكتابة «عملية تجاوز وتخط لنظرية الانعكاس السطحي الميكانيكي البسيط، وهي انحراف عن الطريق المتعارف والمتآلف عليه؛ لأن الكتابة أصلا عملية تشويهية تأبى العيش في ظل ثابتة»[15].

وهذا الانحراف في الشكل والمحتوى عن النموذج السائد أو السابق على الأقل، هو ما يمنح التجريب الأدبي صفته الأدبية، وإذا كان بلحسن قد استطاع تسجيل موقفه النقدي منها فذلك إيمانا منه «بأن الأدب ليس انعكاسا ميكانيكيا آليا للواقع، وإن كان يخرج من عباءته، وينطلق من براهينه»[16].

لقد استحال المجتمع هاجساً بالنسبة للكاتب، كونه يختصر خطاب الذّات الحائرة بخصوص ما يقع في الواقع من أحداث تبعث على الارتباك والتوتر، فضلا عن التشتت وعدم الوضوح في الشعور بهوية الذات التي ما تزال في حاجة إلى ما يعيد انسجامها وتوافقها، من هذا المنفذ تقررت فاعلية الكتابة الأدبية، وحفرت مجراها في المرجعية الاجتماعية الشارحة.

إن إنتاج الأدب يستعصي على التفسير المانع الجامع كونه يخضع للتحول الذي يلحق المرجع الإيديولوجي أكثر من أي احتمال للثبات المصطنع، مما يفقده أي فرصة للاستقرار، ويكسبه فرصا لاختلاف والمغايرة «عبر ماديات لغوية بأشكال مختلفة، وصور متعددة، ويستدعي البحث في تحييناتها تحديد مجالات النوع المعرفي، والشكل، وبالتالي التفريق بين تمثيلها في الوسائل الاتصالية – كتجسيدات نصية، أو خطابات – وبين حدود النوع المحتوي لها، أو النصوص؛ وذلك على اعتبار أن الشكل اللغوي لا يمتلك دلالة بمعزل عن غيره، وبالتالي لا يمتلك أي وظيفة إيديولوجية؛ بمعنى أن الخطابات – إذ تقوم على العبارة، وتحقق التواصل من خلال انتقالها عبر اتجاهات المخاطبة – تُعبر عن وجهة نظر تلتزم التأثير، والتأثر؛ بالاعتماد على مبدأ التعارض، وهو المبدأ الذي تقوم عليه الخطابات أساسا، الأمر الذي يفسر تماما اختلاف الخطابات عبر المؤسسات الاجتماعية، ويفسر كذلك تعالقها الضروري عبر مبدأ التعارض، والصراع الدائم»[17].

يرتبط الأدب بمرجعه الإيديولوجي الذي يتحدث بصوته ويدافع عنه بإخلاص، وهذا نسجله في الآداب الغربية التي طالما حركتها صراعات إيديولوجية تتعلق بتشكيل المجتمعات وتركيبها الطبقي، وكان مسعى الكتابات الغربية دائما استحضار الغائب الأفضل ومقاومة الكتابة الإيديولوجية المادية، ومثلما كان للصراع الإيديولوجي أثر في توجيه المنجز الأدبي والنقدي ظهرت العديد من المدارس الأدبية والنقدية ومهما يكن أمر الصراع من حيث القوة أو الضعف فإن من شأنه إقرار قدر من التنوع والاختلاف[18].

النص وحدة إيديولوجية[19]، تقدّم عبر الممارسة الكتابية بنيات المجتمع في مواقف قوته وضعفه، واعتماداً على التشكيل الفني تحيك علاقة الأدبي بالاجتماعي الإيديولوجي في أعمق صورها، وقد استطاع هذا النمط من التجريب تقديم مختلف القيم الفكرية، واحتواء التركيبة المعقدة للمجتمع، ولهذا يعدّ الأدب «شكلا إيديولوجيا، وتكون الإيديولوجيا هي البنية الفوقية للنسق الفكري، والوعي الاجتماعي، تلك التي تعبر عن علاقات اجتماعية محددة ...»[20].

الأدب شكل إيديولوجي يحيلنا إلى وجود أشكال أخرى من الإنتاج الإيديولوجي، وأن جميعها يمت بصلة وثيقة للأنساق الفكرية المؤسسة، وكذا الوعي الاجتماعي ضمن شبكة معقدة من العلاقات؛ غير أن لكل شكل خصوصيته التعبيرية في مناقشة الحدث الاجتماعي.

يشير الناقد إلى مفهوم آخر سبق أن أثاره التنظير النقدي السوسيولوجي خاصة عند لوسيان جولدمان حين ناقش رؤية العالم التي تختمر في ذهن الكاتب فيباشر مطاردتها إبداعيا دون أن تكون من ابتكاره في الأصل، «وهكذا يصير النص – في هذا التصور المنهجي الجديد – تعبيرا عن "رؤية العالم" (Vision du monde)؛ التي هي ليست وقائع فردية، إنما هي أحداث اجتماعية؛ ترفد رؤى الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها صاحب النص»[21].

ويذهب بلحسن إلى جعل الإيديولوجي مظهرا من مظاهر هذه الرؤية؛ إذ يرى في الإيديولوجيا «تصور العالم الذي يشمل جانبا نظريا (بوصفه يقوم بعملية معرفة ويقدم نشاطا فكريا) وجانبا تطبيقيا لكونه إطارا للنشاط يتجسد كـ إيمان" واعتقاد" وتترجمه عيانيّا مواقف وممارسات ونشاطات ملموسة»[22].

والإيديولوجيا رؤية للعالم من حيث هي تصورات، وأفكار يشترك فيها أفراد الجماعة في حدود الطبقة التي ينتمون إليها؛ بحيث تختلف عن غيرها في التصنيف الاجتماعي[23]، وإيديولوجيا جماعة معينة هي نتاج وعيها الجماعي؛ الذي ينحدر أصلا من الوعي الفردي[24].

إن الإيديولوجيا بوصفها تصورا للعالم تمثل مرجعاً للكتابة الأدبية التي تؤسس جمالياتها في سياق هذا السند الدلالي؛ ولقراءة هذا البعد بلغة واصفة بأتم ما يعنيه المصطلح النقدي من

فهم يتدخل بلحسن قائلا: «نؤكد ضرورة دراسة "الإنتاج الأدبي" في كل مستوياته، بوصفه نتاجا معقدا لتناقضات التاريخ والمرحلة التي أنتج فيها، فالأدب ليس مضمونا إيديولوجيا له شكل أدبي جمالي، أو بناء معينا للأيديولوجيا العامة، أو نسقا لغويا يعيد إنتاجها، أو كتابة شفافة واضحة للرؤية الإيديولوجية للكاتب. إن الأدب والتاريخ والزمن والعلاقات الاجتماعية تشكل جميعا وحدة متناقضة وديناميكية معقدة، ذلك بأن علاقة الأدب الموضوعية بالإيديولوجيا تظهر في كونه خطابا أنتج تحت تأثيرها وفي كونه هو الآخر ينتج آثارا إيديولوجية، لذا فالإيديولوجيا العامة تبدو مضمرة ومخفية في النص الذي تكشفه القراءة، وتكشف من ثم إيديولوجيته لتصبح صريحة»[25].

ويتحقق التشكيل الإيديولوجي للنصوص الأدبية في ضوء هذه المؤشرات (التاريخ/الزمن/العلاقات الاجتماعية) التي يمكن أن تتدخل بشكل جيد في توجيه رؤية الكاتب للعالم، المستوحاة من الإرث الفكري للجماعة الإنسانية؛ فتستحيل «إيديولوجية الكاتب الحقيقية؛ هي رؤيته للعالم»[26]؛ حيث يتخذ العمل الأدبي معناه انطلاقاً من علاقته بالمحيط الخارجي، وأن مكاشفة حقيقته مرتبطة بفهم هذا المحيط.

وتصور العالم الذي تقاربه مختلف النشاطات والممارسات التي ينتجها المبدع لا تعكس رؤيته الخاصة فيما يتعلق بالمرجعية الاجتماعية، وإنما هي تراكم أنتجه الفرد واستطاع أن يخلق لذاته موقعا في الوعي الاجتماعي، ولا يسعى الأداء الإبداعي سوى أن يكون اقترابا لتصور العالم؛ أي محاكاة فنية له دون أن يتمكن من نقله بما هو عليه أصلا، لذا فالخلاف بين مصطلحي العالم، وتصور العالم بائن.

أما عن مرتكزات الفعل الكتابي فيقف بلحسن عند اللغة؛ ويذهب في ذلك مذهبا بعيد إلى حد اعتبار الأدب نتاجا إيديولوجيا «يتواجد في علاقة مع اللغة ومختلف أشكال استعمالها فهو إنتاج لا يوجد إلا بالعلاقة مع الإيديولوجيا ومع التاريخ، تاريخ التشكيلات الاجتماعية، وتاريخ الإنتاج الأدبي وتطور أدواته وتقنياته الأساسية ومواد عمله ...»[27].

إنه ينظر إلى اللغة بعين المحلل السوسيولوجي منوها إلى ما تحمله من طاقات تجعلها تستحوذ على حصة الأسد من الأداء التجريبي للمادة الأدبية؛ وهذا ما أكده حين قال: «إن اللغة كمادة للأدب هي المكان الذي يستطيع كل واحد تقديم نفسه والتعبير عن ذاته، وتمثيل أدواره، واختراع وخلق صور عن نفسه والآخرين والعالم الذي يحيا فيه، ورغم أن الممارسة الأدبية والكتابة هي ممارسة فردية فردانية تعكس إبداعية وحساسية الكاتب وأصالة طريقته لعكس العالم ومعرفته وتحسينه جماليا، فإن الأدب في النهاية محصلة نشاط اجتماعي معقد»[28].

والأديب يحيلنا إلى نشاط بهذا الحجم، مفيدا ما استطاع من خيارات التحسين الجمالي؛ إذ «يجب على الأدب دائماً أن يكون ممتعاً؛ يجب عليه دائماً أن يمتلك بنية، وهدفاً جمالياً وتلاحماً ومفعولاً، يتوجب على الأدب طبعاً أن يكون على صلة معترف بها مع الحياة، وإن كانت الصلات شديدة التنوع يمكن السمو بالحياة أو الاستهزاء بها، أو مناقضتها؛ فالأدب في كل الحالات انتقاء من الحياة ذو طبيعة نوعية هادفة، وعلينا أن نحوز معرفة مستقلة عن الأدب لكي نعرف ما يمكن أن تكون عليه صلة عمل معين بالحياة»[29].

ويأتي بلحسن على الخوض في هذا الطرح في أكثر من سياق مما يحيلنا على قناعة فكرية جادة بخصوص القيم الاجتماعية للغة الأدبية؛ وفي هذا الصدد يقول: «أن اللغة هي المادة الأساسية لكل فاعل أدبي، والمولدة للفعل الأدبي، مع ما تحمله من رموز، وإشارات، وبصمات النسيج الاجتماعي والوطني الذي تعبر عنه»[30].

يقوم الوعي الأدبي على إيديولوجيا العلامات اللغوية، فاللغة من حيث تعبيرها عن البنية الإيديولوجية للوعي الفردي، تعنى أكثر بسؤال التشكيل الإيديولوجي في الوعي الفردي عبر التراكم اللغوي، ويهتم بلحسن أكثر بكيفية التعبير عن الإيديولوجية لا كيفية تشكيلها، والكشف عن الإيديولوجيا يقع في منطقة الوعي المعبر عن رؤية العالم، والكشف عنها في اللغة يقع في منطقة الكلمات التي تمتص مختلف الإيديولوجيات على أساس أن الكلمات تكتنز الوعي وتترجمه.

إن العمل الأدبي من وجهة نظره لغة تعكس مظاهر السلوك الإنساني الاجتماعي، وكماً من الأفكار والمواقف المصاحبة لهذا السلوك، والتي تتموقع أصلاً خارج هذا العمل إلا أنها تتكشف عبر مسعاه الجمالي، «ولعل ما مكنه من التعامل مع واقع اللغة على مستوى الممارسة الإبداعية نابع من اهتمامه بـ "سوسيولوجيا الأدب" وما يوفره علم الاجتماع الثقافي -ميدان اختصاصه- من إمكانات الفصل المفاهيمي بين الأدب والإيديولوجيا»[31].

واشتغال اللغة في الكتابة الأدبية يمثل استراتيجية هامة في مقاربة الطرح الإيديولوجي إلى درجة أنها لا تلتمس تخريجها من هذا المدخل بمعزل عن ذلك، في هذا السياق قدّم بلحسن «مقاربة سوسيولوجية لعلاقة الإبداع الأدبي بالحقل الإيديولوجي تنطلق من مبدأ أن الكتابة هي ممارسة قائمة على اللغة؛ إذ يقوم الكاتب بإعادة صياغة العالم وفق لعبة لغوية وجمالية، فهو -إذن- لا ينسخ الأشياء، وإنما يعيد خلقها من جديد، ومن ثم فهو يعيد إنتاج الإيديولوجيا، ولا يكون نتاجا لها»[32].

إن اللغة أساس التشكيل الفني للعمل الأدبي، فما يزخر به من جماليات لا يسعها أن تتجسد إلا عبر محطة اللغة، كما تتحدد دينامية هذه الأخيرة من تفاعلها مع المرجع الايديولوجي،

والمميز في التشكيل اللغوي الأدبي سمة التعدد؛ إذ يستنطق العالم وفق أكثر من نسق لغوي بحكم تعدد التجارب الاجتماعية التي يقاربها، فاعتماد نمط لغوي واحد من شأنه تسطيح الكتابة الأدبية، والحد من آفاقها الدالة.

يرسم بلحسن خطاطة العلاقة (الأدب/الإيديولوجيا) مرورا بثلاثة طروحات معرفية كبرى؛ حيث ينطلق الاشتغال الكتابي من النص الأدبي مرورا بتصور الإيديولوجيا وصولا إلى معرفة الواقع الذي يتبناها، وقد وضح كل طرح محددا بعده الوظيفي، وكذا صلته بغيره:

الطرح الأول: «النص الأدبي هو كتابة تنظم الإيديولوجيا و"تُبَنْيِنُها"؛ أي تعطيها بنية وشكلا ينتج دلالات جديدة ومتميزة، تختلف في كل نص، وتبدو جديدة وأصيلة، بحيث إن كل نص يحمل تجربته الخاصة ودلالاته المتميزة؛ أي شكله ومضمونه»[33].

يتعامل النص الأدبي مع المشهد الإيديولوجي بطريقته الفنية الخاصة؛ حيث يستنطق ما استطاع من تفاصيله، ونحن نقرأ هذا النص نكاشف المشهد الفكري وقد استحال بنية دالة من البنى النصية التي قام عليها، فضلا عن اختلاف معالجة المشهد نفسه من نص لآخر.

الطرح الثاني: «يقوم النص الأدبي بتحويل الإيديولوجيا وتصويرها؛ الأمر الذي يسمح باكتشافها وإعادة تكوينها بوصفها إيديولوجيا عامة، قائمة في عصر أو مجتمع معين. إن النص يفضح كاتبه ويعرّيه ويجعل واضحا ما يخفيه من انعكاسات فكرية ورؤى عندها تصبح الإيديولوجيا التي يحملها صريحة في قولها، برغم أن وجودها في النص وجود مضمر ويخفى في أثواب، وألبسة، وأشكال، وصور، وملامح .. لا حصر لها»[34].

لا يكتفي النص الأدبي بتقديم الطرح الإيديولوجي كما هو، وإنما يعمد إلى مساءلته ومراجعته وتحويله بشكل يمكننا بوصفنا قارئا من تبيّن أمره واكتشافه بالرغم من تضمينه المستتر، بل قد تساهم هذه الممارسة في الانحراف بالإيديولوجيا عن مسارها المعروف إلى مسار آخر يكون أقل أو أكثر اختلاف عن النموذج السائد.

الطرح الثالث: «يتضمن العمل الأدبي عناصر معرفة الواقع؛ فهو "انعكاس عارف"، وتمثل فني جمالي لظواهره، وأشخاصه، وعلاقاته، وأحاسيسه، ومخفياته. إن هذه المعرفة تختلف عن المعرفة العلمية بالمفهوم الدقيق للكلمة، نظرا لاختلاف اقتراب العلم والأدب من الواقع، وطريقة تمثلهما له»[35].

يتحدث النص الأدبي بلسان الواقع عن معرفة عميقة بدقائق أموره، وصغائر حيثياته، وتفاصيل ملابساته، غير أنه يلبس لذلك أكثر من قناع جمالي، لتكون الاستعارة النصية لما هو واقع أصدق تمثلا وأشد إقناعا في الإيهام بواقعية الحدث الاجتماعي المعبّر عنه.

إن ما قدّمه الناقد الجزائري "عمار بلحسن" من جهد نقدي في طرحه سؤال المرجع الإيديولوجي في مقاربة النص الأدبي يوحي فعلا بأنه قد عني برصد «الظاهرة الأدبية في الجزائر بعيون الناقد السوسيولوجي الذي يبحث في الواقعة في جذورها الاجتماعية والثقافية»[36]، وبذلك استطاع تسجيل حضور ينم عن كفاءة، وطاقة قرائية كامنة؛ بحكم أفكاره الفلسفية الجدلية، وانفتاح أفقه المنهجي على مقولات النقد الغربي، غير أن هذا الجهد الذي يكاد يتخصص في النقد الإيديولوجي لم يحقق التراكم المطلوب في المنجز النقدي الجزائري؛ لذا لا يسعنا إلا أن نصفه بالفردي في مجاله، ومع ذلك فإنه يستحق وقفة بحثية مطولة مع كثير من القضايا الإشكالية الجادة التي أثارها رحمه الله.

قائمة المصادر والمراجع العربية:

1. إسكاربيت (روبير)، سوسيولوجيا الأدب، تر آمال أنطوان عرموني، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط3، 1999.

2. بركان (سليم)، النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد للروائية أحلام مستغانمي - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، تخصص: تحليل الخطاب، إشراف الدكتور عبد الحميد بورايو، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2003-2004.

3. بلحسن (عمار)، الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

4. بلحسن (عمار)، الجزائر كنص – سؤال عن الأدب الوطني، التبيين، الجزائر، ع1، 1يناير 1990.

5. بلحسن (عمار)، ما قبل - بعد الكتابة حول الإيديولوجيا/الأدب/الرواية، فصول، مصر، ع4، 1 أكتوبر 1985.

6. رابحي (عبد القادر)، عمار بلحسن سوسيولوجيا .. الرؤية الأدبية والمعترك الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران1، الجزائر، مج4، ع8.

7. شعلان (عبد الوهاب)، إشكاليات الكتابة الأدبية في الجزائر من منظور سوسيولوجي –قراءة في المقاربة النقدية عند عمار بلحسن-، الملتقى الوطني الأول حول: النقد الأدبي الجزائري 21-22 ماي 2006. حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، ع2، ديسمبر 2013.

8. شعلان البطحاوي (هادي)، مرجعيات الفكر السردي الحديث، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016.

9. عبد الصدوق (عبد العزيز)، إشكالية الكتابة النقدية عند عمار بلحسن قراءة في الماهية والإمكان، مجلة لغة – كلام، ع1، 2015.

10. عموري (السعيد)، إيديولوجيا/الخطاب/النص نحو مقاربة مفاهيمية، مجلة الأثر، ع18، جوان 2013.

11. لوكاتش (جورج)، دراسات في الواقعية، تر. نايف بلوز، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، 2006.

12. مجموعة من المؤلفين، معجم تحليل الخطاب، إشراف باتريك شارودو، ودومينيك منغنو، تر. حمّادي صمّود، وعبد القادر المهيري، مراجعة صلاح الدين الشريف، منشورات المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس، 2008 (السنة الوطنية للترجمة).

13. مداس (أحمد)، الإيديولوجيا وصراع المركز والهامش عند الغربيين، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة- الجزائر، العدد السابع، 2011.

14. وارين (أوستن) ويليك (رنيه)، نظرية الأدب، تر. محي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط2، 1981.

15. وغليسي (يوسف)، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية:

16. Goldman (Lucien), le dieu caché, Editions, Gallimard, paris 1983.
17. Kristeva (Julia), Recherche pour une sémanalyse, Editions Du Seuil, Paris, 1969.

الإحالات:

[1]- مجموعة من المؤلفين، معجم تحليل الخطاب، إشراف باتريك شارودو، ودومينيك منغنو، تر. حمّادي صمّود، وعبد القادر المهيري، مراجعة صلاح الدين الشريف، منشورات المركز الوطني للترجمة، دار سيناترا، تونس، 2008 (السنة الوطنية للترجمة)، ص 294.

[2]- المرجع نفسه، ص 295.

[3]- سليم بركان، النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد للروائية أحلام مستغانمي - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، تخصص: تحليل الخطاب، إشراف الدكتور عبد الحميد بورايو، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2003-2004، ص 10-11.

[4]- روبير إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، تر آمال أنطوان عرموني، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص6.

[5]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 111.

[6]- المصدر نفسه، ص 92.

[7]- جورج لوكاتش، دراسات في الواقعية، تر. نايف بلوز، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط4، 2006، ص132.

[8]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، مصدر سابق، ص 125.

[9]- سليم بركان، النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد للروائية أحلام مستغانمي - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، مرجع سابق، ص 15.

[10]- عمار بلحسن، ما قبل - بعد الكتابة حول الإيديولوجيا/الأدب/الرواية، فصول، مصر، ع4، 1 أكتوبر 1985، ص 168.

[11]- المصدر نفسه، ص 168.

[12]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، مصدر سابق، ص 138.

[13]- هادي شعلان البطحاوي، مرجعيات الفكر السردي الحديث، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص 83-84.

[14]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، مصدر سابق، ص 95.

[15]- عبد الصدوق عبد العزيز، إشكالية الكتابة النقدية عند عمار بلحسن قراءة في الماهية والإمكان، مجلة لغة – كلام، ع1، 2015، ص 126.

[16]- المرجع نفسه، ص 128.

[17]- عموري السعيد، إيديولوجيا/الخطاب/النص نحو مقاربة مفاهيمية، مجلة الأثر، ع18، جوان 2013، ص 148.

[18]- ينظر: أحمد مداس، الإيديولوجيا وصراع المركز والهامش عند الغربيين، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة- الجزائر، العدد السابع، 2011، ص 59.

[19]- ينظر:

J. Kristeva, Recherche pour une sémanalyse, Editions Du Seuil, Paris, 1969, p. 52/81.

[20]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، مصدر سابق، ص 76.

[21]- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص 147.

[22]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، مصدر سابق، ص 19

[23]- ينظر: Lucien Goldman, le dieu caché, Editions, Gallimard, paris 1983, p. 26.

[24]- ينظر: المرجع نفسه، ص 27.

[25]- عمار بلحسن، ما قبل - بعد الكتابة حول الإيديولوجيا/الأدب/الرواية، مصدر سابق، ص 168.

[26]- سليم بركان، النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد للروائية أحلام مستغانمي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، مرجع سابق، ص 18.

[27]- عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، مصدر سابق، ص 92.

[28]- المصدر نفسه، ص 123-124.

[29]- رنيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر. محي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط2، 1981، ص 221.

[30]- عمار بلحسن، الجزائر كنص – سؤال عن الأدب الوطني، التبيين، الجزائر، ع1، 1يناير 1990، ص 134.

[31]- عبد القادر رابحي، عمار بلحسن سوسيولوجيا .. الرؤية الأدبية والمعترك الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران1، الجزائر، مج4، ع8، ص 345.

[32]- عبد الوهاب شعلان، إشكاليات الكتابة الأدبية في الجزائر من منظور سوسيولوجي –قراءة في المقاربة النقدية عند عمار بلحسن-، الملتقى الوطني الأول حول: النقد الأدبي الجزائري 21-22 ماي 2006، حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، ع2، ديسمبر 2013، ص 131.

[33]- عمار بلحسن، ما قبل - بعد الكتابة حول الإيديولوجيا/الأدب/الرواية، مصدر سابق، ص 168.

[34]- المصدر نفسه، ص 168.

[35]- المصدر نفسه، ص 168.

[36]- عبد الوهاب شعلان، إشكاليات الكتابة الأدبية في الجزائر من منظور سوسيولوجي –قراءة في المقاربة النقدية عند عمار بلحسن-، مرجع سابق، ص 136.